نظرتنا الى الدين

قبل ان نتحدث عن موقف الدولة العربية المقبلة من الدين وعن مركز الدين في حياة الامم والشعوب بصورة عامة، وعن مركزه في حياة الامة العربية، أحثكم في هذه المرحلة، مرحلة التحرر والانبعاث، على أن تجعلوا ثقافتكم ثقافة متينة، وان تستزيدوا دوماً من الثقافة والفكر وان تتسلحوا بحرية التفكير قبل كل شيء، فبدون حرية التفكير لايمكن أن تصلوا الى الحقيقة. . الى الحل الناجع لكم ولأمتكم.

الدين كما يظهر لنا من استعراض تاريخ البشر منذ أقدم العصور الى اليوم، هو شيء أساسي في حياة البشر. فاذن بهذه الكلمة نطرح جانباً ذلك الاستخفاف الرخيص بالدين الذي يظهر عند بعض الشباب السطحيين. فموضوع الدين هو موضوع جدي ولا يمكن أن نحله بكلمة أوبحكم سطحي عابر، ولكن يجب أن نفرق بين الدين في حقيقته ومرماه، وبين الدين كما يتجسد أو يظهر في مفاهيم وتقاليد وعادات ومصالح، في ظرف ومكان معينين.

المشكلة اذن هي في الفرق بين حقيقة الدين وظاهر الدين، لأن له حقيقة وله ظاهر، والمشكلة تنشأ عندما يكون الفرق بين حقيقة الدين وبين مظهره فرقاً واسعاً جداً، يبلغ أحياناً حد التناقض، يكون المظهر احياناً مخالفاً كل المخالفة لمرامي الدين الاصيلة ولحقيقته، وحينئذ تتكون الازمة عند الشعوب والافراد. والازمة تتمثل بأشكال مختلفة عند الناس، حسب مستويات الناس الفكرية وحسب تجردهم عن المصالح، او عبوديتهم للمصالح الخاصة. فالمسألة معقدة يدخل فيها الفكر والعلم، ويدخل فيها الهوى والعاطفة وتدخل فيها المصلحة والمنفعة، وعلى الشباب العربي اليوم أن ينظر بكل ترو وهدوء، ونزاهة في الحكم وصفاء في الذهن. . ينظر الى هذه المشكلة، ويعرف ما هو نصيب الهوى فيها وما هو نصيب المصلحة الخاصة. عندها يستطيع ان يصل الى حكم قريب من الصحة والفائدة العامة.

في حياتنا القومية حادث خطير وهو حادث ظهور الاسلام. . حادث قومي،

وانساني عالمي . ولا أجد أن الشباب العرب يعطون هذا الحادث حقه من الاهتمام . لا أجد أنهم يدرسونه ويحيطون بكل ظروفه وتفاصيله وملابساته ، لان فيه عظة بالغة ، فيه تجربة هائلة من تجارب الانسانية يمكن أن تغنيهم وتغني ثقافتهم العملية والسياسية وكل شيء .

هل يفكر الشباب أن الاسلام عند ظهوره هو حركة ثورية ، ثائرة على أشياء كانت موجودة : معتقدات وتقاليد . . ومصالح؟ . . وبالتالي هل يفكرون بأنه لايفهم الاسلام حق الفهم الا الثوريون؟ . وهذا شيء طبيعي لان حالة الثورة هي حالة واحدة لاتتجزأ ، وهي حالة خالدة لاتتبدل ، فالثورة قبل ألف سنة وقبل ألفي سنة وقبل خمسة آلاف سنة ، والآن وبعد ألوف السنين : الثورة واحدة ، لها نفس الشروط النفسية ، ولها نفس الشروط الموضوعية أيضاً الى حد كبير . فمن الغريب العجيب ، وهذا ما يجدر بكم أن تفكروا فيه وتتأملوه ، ان المدافعين الظاهرين عن الاسلام الذين يتظاهرون بالغيرة اكثر من غيرهم وبالدفاع عن الاسلام ، هم أبعد العناصر عن الثورة في مرحلتنا الحاضرة ، لذلك لايعقل ان يكونوا فهموا الاسلام . ولذلك من الطبيعي جداً أن يكون أقرب الناس الى الاسلام فهما وتحسساً وتجاوباً هو الجيل الثوري ، الجيل الثائر على القديم الفاسد طبعاً . وهذا مالا نراه ، أي أن الجيل الثائر ليس كله ولا أكثره معترفاً بهذه الصلة بينه وبين الاسلام ، في حين أن الذين يدعون هذه الصلة ويتشبثون بها هم أعداء الثورة ، هم ممثلو الاوضاع القديمة التي يجب أن تزول لكي تنهض الامة العربية .

انكم بلا شك تعرفون بعض الاشياء الاولية عن الاسلام ، وأرجو أن تكونوا عارفين لكل الاشياء . أول ما تعرفونه عن الاسلام أن هذه الحركة التي نادى بها فرد واحد في البدء ، وآمن بدعوته أفراد قلائل ، واحداً بعد الآخر ، وأفراد أكثرهم ضعفاء بالنسبة الى مجتمعهم ، وأنهم جاهروا بهذه الدعوة وتحملوا الاذى والضغط وتحملوا الشيء الكثير مدة لا تقل عن ثلاث عشرة سنة في مكة حتى الهجرة ، وبعد الهجرة ينتقل الاسلام الى دور من القوة النسبية : اذ لم يعد المسلمون تلك الفئة المحصورة في بحر من الاعداء ، بل كونوا لأنفسهم جماعة كلها مؤمنة . فهل يحق لمن لم يعرف

الاضطهاد، ولمن لم يرض أن يكون من الفئة القليلة المجاهرة بالحق في وجه الفئة الكبيرة الضالة. . هل يحق له أن يتكلم باسم الاسلام؟ وان يعتبر الاسلام ملكه الخاص. .؟ وانه هو المدافع عنه؟. . أنا لا أعتقد ذلك، لا أعتقد أن ذاك الحق يمكن أن يعطى فعلا الا للمضطهدين. . الا لذوي المبدأ والشجاعة الذين يجاهرون بعقيدة يؤمنون بها ويرون فيها الخير للمجموع، وان كان أكثرية الناس حولهم وجملة الاوضاع المحيطة بهم هي ضدهم، تؤذيهم، وتضغط عليهم، وتكافحهم. هؤلاء لهم الحق لان المبادىء والدعوات سواء أكانت دينية أو اجتماعية أو قومية أو فكرية. . المبادىء والدعوات معيارها العمل وليس معيارها الكلام، فالكلام لايكلف شيئاً. الكلام سهل سواء أكان شفهياً أو مكتوباً، لا يكلف اكثر من الجهد اللازم لكي نتفوه بهذا الكلام أو نكتبه على الورق، ولكن قيمة المبادىء هي عندما تمتحن بالعمل. فاذا قبلنا بهذا المقياس تنقشع من على أعيننا غشاوات كثيرة. ونكتشف زيفاً كثيراً وتضليلاً كثيراً أو جهلاً وغروراً عند الذين يتوهمون أو يدّعون بأنهم أنصار المبادىء ودعاة المبادىء، ولكنهم لم يختاروا الطريق الصعب بل اختاروا السهولة والسير مع التيار الناجح، وأن يكونوا مؤيدين ومدعومين بكل ما في المجتمع من وسائل الراحة والحماية، وان لا تهدد راحتهم او مصالحهم أو كبرياؤهم بأي أذى. . نكتشف بأن هؤلاء ليسوا هم اجدر من يدعي الدفاع عن المبادىء او الانتصار لها.

فلو تخيلنا ان المسلمين الاولين الذين عرفوا النضال من أجل المبدأ، وذاقوا كل مرارته، واجتازوا امتحانه، ودفعوا ضريبته. . هذه الفئة أو بعض أفرادها لو جاؤوا اليوم، وهبطوا على حياتنا العربية الحاضرة. . تصوروهم بنفسيتهم المناضلة الثائرة، بشعورهم الحاد بالحق، وبأن الحق شيء مقدس لا يكفي ان نعرفه، بل نعرفّه للآخرين، وأن نستميت في سبيله حتى يظفر ويهتدي به الآخرون، وهذه نفسية المؤمن بدعوة حقة. لو جاؤوا اليوم، اي وسط يستطيبونه ويهدأون اليه، ويشعرون اليه بالقرابة؟ هل هو وسط الظلم الاجتماعي، وسط الاغنياء والوجهاء والمستثمرين للشعب والذين ينامون ملء جفونهم بينما تسعون بالمئة من شعبنا العربي يعيش حالة

البؤس والمرض والذل؟ . . هل يستطيعون ان يعيشوا مع هذه الطبقة من المستغلين والمتربعين على الزعامات؟ . . اومع حماة هذه الطبقة الذين يدافعون عنها تارة باسم الدين وتارة بأي اسم آخر؟. أنا اعتقد بأن المسلمين الاولين لو رجعوا اليوم لما استطابوا العيش الا في القرى المظلمة البائسة مع المظلومين والمستعبدين، الا في السجون مع المناضلين، فأصحاب دعوة الحق هم دوماً الى جانب الحق.

الشباب مطالبون بأن ينظروا هذه النظرة النظيفة، بأن لا دين مع الفساد والظلم والاستثمار، وان الدين الحقيقي هو دوماً مع المظلومين ومع الثائرين على الفساد. وهذا يعني ان كثيرين شوهوا الدين في بلادنا وفي ارضنا كما شوهه كثيرون في غير بلاد وغير أراض. فالدين المسيحي في اوروبا، حتى اليوم، بأكثرية ممثليه الرسميين هو الى جانب الفساد والظلم يحميهما ويعطيهما مبررات البقاء، لذلك فقد نفوذه وطغت موجة الالحاد في الغرب ليس عبثاً بل لهذا التناقض، لان الدين بممثليه وقع في التناقض: لان الدين وجد ليشجع المحبة والاخاء، ليحمي الضعيف، ولكن أصبح بممثليه سياجاً لكل هذه المساوىء.

فالازمة اذن ليست بسيطة. . هي أزمة انسانية، أي أنها تمس أعماق الضمير الانساني في الافراد، ولكن قد يفهمها عدد قليل من الافراد على حقيقتها، بينما أكثر الناس يفهمونها فهماً سطحياً. والفهم السطحي هو ان نستنتج بسرعة، بأنه ما دام مظهر الدين في هذا الوقت وما دام ممثلو الدين الرسميون هم في صف الواقع الفاسد وليسوا في صف الثورة على الفساد فاذن الدين من أساسه فاسد ولا وجوب له ولا خير فيه، لذلك يجب التخلص من الدين لانه سلاح بيد الظالمين والمفسدين. هذه هي النظرة السطحية والاستنتاج الخاطىء جداً، وهذه هي النظرة التي توقفت عندها الشيوعية. ولذلك فالشيوعية ليست عميقة في كل نواحيها ـ ولو انها في كثير من نواحيها جد عميقة ـ ولكنها بقيت سلبية في كثير من المواقف: لاحظت الماركسية وملاحظتها حقة، بأن الدين أصبح في أوروبا سلاحاً بيد الظالمين المستثمرين المستعمرين لابقاء الشعب رازحاً تحت الاستثمار والاستعباد،

وهذا حق ـ هذه الملاحظة صحيحة ومن صميم الواقع ـ فقالت: الدين أفيون الشعوب. . هو المخدر. . السم الذي يمنع الشعب من الثورة، ولذلك أعلنت الالحاد كعقيدة. . الحاد بكل شيء خارج عن المحسوس. هذه نظرة عاطفية، فيها الهوى والحقد، وعصارة الالم من الظلم وأوضاعه: بما ان الدين واجبه الحقيقي، ومرماه الاصلي الحقيقي هو اشاعة العدل ورفع الظلم، وبما ان الدين أصبح اداة للظلم، اذن يجب ان يتحرر منه البشر.

هذه النظرية السطحية السلبية نحن لم نتوقف عندها ولم ننخدع بها، بل تجاوزناها منذ بدء حركتنا، ومنذ وضعنا التعابير الاولى البسيطة عن حركتنا. ليس فيها هذه السلبية، بل مشينا الى آخر الطريق، ووجدنا بعد اليأس الامل والتفاؤل بالانسان، ووجدنا بعد النقمة والحقد. . وجدنا ينبوع المحبة والاخاء. لم نحكم حكماً نهائياً على وضع عارض ومؤقت ومشوه، وبالتالي كانت فكرتنا فكرة روحية. الا انه يجب ان نفرق بين تفكيرنا نحن وبين تفكير آخرين اذ بينهما من الفرق ما بين الابيض والاسود. فنحن عرفنا واختبرنا صحة الحملة السلبية على مظهر الدين في هذا العصر، الحملة السلبية التي ذكرناها الآن عرفناها واختبرنا صحتها، ووافقنا على أنها مشروعة في حملتها على مظهر الدين، ولكننا تجاوزناها وقلنا: ليس قدراً على الدين ان يبقى متحجراً دوماً. الدين قادر على ان يعود الى حقيقته اذا وجد أفراداً مؤمنين متجردين يعيدون الى الدين صفاءه الاول. الدين شيء أساسي وسيرجع الى جوهره متغلباً على النقمة.

هناك فرق بين هذه النظرة التي هي نظرتنا، وبين الذين يوافقون على مظاهر الدين دون أن تنشأ في نفوسهم هذه المعركة التي عانيناها، ودون أن ينظروا الى تشويه مظاهر الدين، ودون أن يثوروا وينقموا، ويتغلبوا على هذه النقمة تغلباً ايجابياً. قلنا ان الدين شيء أساسي وسيرجع الى جوهره متغلباً على النقمة. . وحاربنا هذه المظاهر الفاسدة لكي يعود الدين الى صفائه. أما الذين لايشعرون بأن ثمة معركة يجب أن يخوضوها، ولم يتجاوبوا مع هذه النقمة المشروعة التي تنشأ في قلوب المظلومين والذين رأوا في الدين في هذا العصر سلاحاً يستند عليه

الظالمون . . ان الذين لم يشعروا بهذه النقمة ولم يتجاوبوا معها، ولم يصلوا الى اعماقها لكي يتغلبوا عليها بحل ايجابي متفائل مؤمن بأن بعث الدين يكون بازالة هذه المفاسد والمظالم، وأن ألف حجة في الدفاع عن الدين لاتغني ولا تساوي حجة عملية واحدة تزيل شيئاً من مظالم الحياة، فهم أعداء الدين، لن ينفع الوعظ والترديد بأن الدين خير وبركة، وبأن فيه الكمال كل الكمال . . ان هذا لايغني شيئاً، وهو يستغل سواء أراد الذين يتكلمون ذلك أو لم يريدوا، فان مستغلي الاوضاع الفاسدة سيستغلون هذا الفساد لكي يخدروا الشعب، ولكي يمنعوا الشعب من الثورة على ظالميه ومستعبديه.

هناك نظرة سطحية جداً الى مظاهر الالحاد في حياة هذا العصر سواء في الشرق او الغرب، نظرة استنكار واشمئزاز من كل مظهر الحادي بأنه هذا هو الشر العميم دون ان نبحث عن أسباب هذا الالحاد وهذه المظاهر الالحادية، ولكن متى عرفنا بأن الاوضاع الجائرة هي أهم سبب في هذه المظاهر، وأن ما جاء في الحديث كما يذكر: «كاد الفقر يكون كفراً» معناه ان الاوضاع الجائرة تخرج الانسان عن دينه، فاذن كيف يسمح بعض الناس لأنفسهم ان يحكموا براحة وبساطة، وبدون ان يتعبوا أنفسهم في البحث والتفتيش عن الاسباب، أن يكفّروا فلانا ويرموا آخر بالزندقة، ويثوروا على الالحاد وغير ذلك؟ . . . وهم لم يتنازلوا أن يروا ما هي الاسباب التي تؤدي الى المظاهر الالحادية ولم يتنازلوا أن يتعبوا عقولهم . . لماذا اليوم توجد مظاهر الحادية وفي الماضي لم تكن موجودة . . ؟ في الماضي كانت أوضاع سليمة أو شبه سليمة لم تكن تستوجب هذه الثورة وهذه النقمة.

ونحن لا نرضى عن الالحاد، ولا نشجع الالحاد، ونعتبره موقفاً زائفاً في الحياة، موقفاً باطلاً وضاراً وكاذباً. اذ أن الحياة معناها الايمان، والملحد كاذب: انه يقول شيئاً ويعتقد شيئاً آخر. . انه مؤمن بشيء . . . مؤمن ببعض القيم. ولكننا ننظر للالحاد كظاهرة مرضية يجب أن تعرف أسبابها لتداوي، ولا ننظر اليه كشر يجب أن يعاقب لان ذلك لا يخفف الالحاد بل يزيده، فعندما نبحث عن الاسباب، نستطيع أن نزيل الالحاد.

قلت بأن الالحاد موقف كاذب وهذا يعني أن الملحد انسان متناقض يدعي شيئاً ويعمل خلافه. فالثورة على الدين في أوروبا هي دين، هي ايمان بمثل وبقيم انسانية رفيعة، وهي اقرب الى الدين في حقيقته الاصيلة. وهذه الثورة حملت بذور الخلق والاصلاح، لأنها هزت المجتمع والافراد هزاً عنيفاً، وأرجعتهم الى نفوسهم، وبينت لهم التضليل الذي كان ينطلي عليهم، وحررتهم، حررت انسانيتهم.. حررت شخصيتهم. ولكن هذا موقف ناقص. حينما طلبت منهم ان يرفضوا الدين نبهتهم الى نصف المشكلة فقط. الدين في الاوضاع الحاضرة هو الذي يخلق المشكلة، هو الذي يساعد على بؤسهم وعبوديتهم، ولكن عندما تستيقظ الشعوب وتسترد حقوقها وكرامتها لايمكن ان تقنع بالالحاد، وعندها تخطو الخطوة الجديدة وتكمل النقص بالخطوة الايجابية، وتعود الى دين واضح سليم منطبق تمام الانطباق على مراميه الاولى.

آذار ١٩٥٦